القـــــــــــراءات و السيـــــــــاق

د.عبد الجبّار عبد الأمير هاني
كلّية الآداب-جامعة البصرة
قسم اللغة العربيّة

الملخّص

يتناول هذا البحث دراسة دور السياق في اختيار القراءات القرآنية عند القرّاء القدماء ، وهو محاولة لا تدّعي إحاطتها بهذا المستوى من القراءات الذي يتجلّى فيه حضور البعد السياقيّ عند القرّاء ودوره في اختيارهم هذه القراءة أو تلك ، وما هي إلّا نماذج مختارة من القراءات وقفتُ عندها وتناولتها بالوصف والتفسير على أساس قرينة السياق بنوعيه اللغويّ وغير اللغويّ الذي لم يُدرس إلى الآن في حدود ما اطلعتُ عليه دراسة مستقلّة .

الكلمات المفتاحية : القراءات ، السياق ، السياق اللغويّ ، السياق غير اللغويّ .

Contextual Reading

Abdul Jabbar Abdul Amir Hani
College of arts / Department of Arabic
University of Basrah

Abstract

This study (Contextual Reading) deals with the role of the context in the selection of Quranic readings that were adopted by the classical readers. It is an attempt that does not claim to be an inclusive study dealing with all the Quranic heritage of readings, but it reflects the presence of the contextual dimension of the readers and their role in choosing this reading or others. It is just selected models of readings that I examine by description and interpretation depending on the linguistic and non-linguistic contextual which were not studied, within my own knowledge, in a detached study.

Keywords : Quranic readings , Context , Linguistic contextual , Non – linguistic contextual

المقدّمة :

يسعى هذا البحث (القراءات والسياق) إلى بيان دور السياق في اختيار القراءات القرآنية عند القرّاء القدماء ، وهو محاولة لا تدّعي إحاطتها بهذا المستوى من القراءات الذي يتجلّى فيه أثر السياق في الميل إلى هذه القراءة أو تلك ، وما هي إلّا نماذج مختارة من القراءات عرضتها على أساس السياق بنوعيه اللغويّ وغير اللغويّ الذي لم يُدرس ـــــــ حسب علمي ـــــــــــ دراسة مستقلّة .

وقد اتبعت لبلوغ غايتها منهجاً يقوم على ذكر القراءة وإدراج أسماء القرّاء الذين اتفقوا فيها ، ومن بعدُ توجيه القراءة في إطار البعد السياقيّ ، للوصول إلى نتائج هذه المحاولة التي تهدف إلى بيان دور السياق اللغوي وغير اللغوي في اختيار القراءات التي تقوم أساساً على استبدال عنصر لغويّ بآخر أو تغيير أسلوب إلى آخر في ضوء الفهم السديد لنسق النص القرآني في نظمه وسياقه ومناسباته .

لقد عكف باحثو اللغة العرب المعاصرون ومن قبلهم النحاة وعلماء القراءة والتجويد على دراسة القراءات في الغالب في إطار الظواهر اللغوية للهجات العربية وتأثر القراءات بأنماط النطق اللهجي ، وتأثرها كذلك بمقتضيات القوانين الصوتية في مجال التسهيل والتخفيف والإبدال وغيرها من الظواهر الصوتية ، ومن بعدُ تقويم هذه القراءة أو تلك على أساس منهج معياري يُميز بين الصحيح المقبول والشاذ غير المقبول من القراءات ، أو على أساس منهج تاريخيّ وصفيّ (أحياناً) يُميز بين الفصيح الشائع والنادر القليل في الغالب ويعزو هذه القراءة إلى ظاهرة لهجية ، ويُفسر تلك على أساس من الاقتصاد في الجهد العضلي ، ومتطلّبات التسهيل فيما يندرج تحت هذا من قراءات صوتية في الأكثر ، دون العناية الكبيرة بتلك الطائفة من القراءات التي يتحكّم السياق اللغوي وغير اللغوي في الميل إليها واختيارها ، ومع ذلك فهناك إشارات جيّدة في كتب القراءات والتفسير عند القدماء إلى استحضار دور السياق في اختيار القراءات ، وهي إشارات قيّمة على قلّتها وقد أفاد منها الباحث .

وبعد ، فحسبي في هذه المحاولة أنّي عزمت الأمر فيها ، فإن أصبت فبفضل من الله وإلّا فإني بذلت ما وسعني من جهد ، ومن الله السداد والتوفيق .

مدخل

تُعدّ القراءات عناصر لغوية استبدالية في ضوء مقتضيات الواقع اللغوي اللهجي والنظام الصوتي وقوانينه في اللغة العربية ، وهي في هذا تمثل مصدراً مهمّاً من مصادر دراسة اللهجات العربية القديمة على نحو خاص لوثاقة المنهج الذي اعتمدت عليه فليس ((من شكّ في أنّ القراءات تمثل منهجاً في النقل لا يصل إلى وثاقته علم آخر مهما يكن حتى منهج الحديث))(١) .

ولا شكّ كذلك في أنّ موافقة القراءات لنظام العربية اللغوي وأساليبها ، ومناسبة القراءات للنص القرآني في سياق نظمه ومراعاة نسقه التركيبيّ من أبرز السمات المنهجية في اخيار القراءات ، وهذا وحده منهج وآياته ومعرفة ملابساته وفهم مقاصده ، ولذا قال عبد الله بن مسعود : ((إنّي سمعت القرأةَ فوجدتهم مُتقاربين))(٢) ، لا في القراءة وحدها وإنّما في فهم النص القرآني في نظمه ومراده ، فضلاً عن الفصاحة التي عُرفوا بها وعلمهم بالعربية وخصائصها .

ومن هنا يمكن القول إنّ القراءات القرآنية لم تكن انعكاساً لواقع لهجيّ أو استجابة لمقتضيات الظواهر الصوتية المطردة فحسب ، وإنّما كانت في طائفة كثيرة منها مراعاة لسياق النظم القرآني وملابساته ومقاصده ، دون إخلال بالنسيج أو المعنى المراد ، وهي بمحلّ من الفصاحة لا تتنافى وصور فصاحة النصّ القرآني وقراءات الجمهور ، وإذا كانت الفصاحة كما نراها اليوم هي الانسجام بين اللفظ والمعنى ومناسبة ذلك للسياق وارتباط صور النظم بالمقصود فإنّ العبرة كما يقول عبد القاهر الجرجاني : ليست بالألفاظ وإنّما بنظم الكلام وسياقاته (٣) ولا قيمة للكلمة المفردة ما لم تغذُ مشحونة بطاقات وإيماءات واحتمالات تستهدفها من جاراتها .

وإذا كان السياق بنوعيه الداخلي (اللغويّ) والخارجيّ (غير اللغويّ) هو الذي يوجّه هذه القراءة أو تلك فإنّ ما نقصده بالسياق اللغوي في هذا المجال هو نظم القرآن وصياغته المغايرة لأشكال الخطاب العربيّ بوصفه طريقة متميّزة في النسج والبناء وأسلوباً مُتفرّداً في التركيب والترتيب في أنساق متماهية يتّصل بعضها ببعض ويشتدّ أسرُ السابق فيها باللاحق والتالي بالسابق في نسيج محكم مُتقن يجعل النص القرآني بسوره المائة والأربعة عشر نصّاً واحداً تتوالى آياته في نسقٍ نظميّ يتّسم بوثاقة الصلة ، ونسيجٍ مغاير لمألوف الكلام من اتساق في السبك وتناسب محكم بين اللفظ والمعنى .

أمّا السياق غير اللغوي فالمقصود به البيئة الخارجية المحيطة بإنتاج الكلام بما تشتمل عليه من مواقف وظروف وملابسات ، وهو في مجال البحث حصيلة المواقف والظروف والدواعي المصاحبة لنزول النص القرآني ، وهو ما عُرف عند المُفسّرين بـــــــ(سبب النزول) وقد عرّفه الدكتور صبحي الصالح بقوله : ((ما هو إلّا قصّة تستمدّ من الواقع عرضها وحلّها وعقدتها وحبكتها وأشخاصها وأحداثها))(٤) ، وإذا كان سبب النزول ذا مفهوم خاص لدى بعض المفسرين فهو في هذا البحث يشتمل على ملابسات نزول النص القرآني وسياق الحال المتصوّر الذي نستشفّه من سياق النص وما يُحيط به من أخبار تُحيل إلى موقف أو شخصيّة أو مشهد ، وإذا كان سياق الحال له دوره الواضح في تكوين الوحدات اللغوية ((مدوّنة أو منطوقة))(٥) فإنّ النص بدوره يُشير إلى سياق مُعيّن ، لذلك كان سياق الحال معنيّاً بالبحث في صلة الوحدة اللغوية بالمناسبة والحدث والموقف ، وعلى هذا الأساس لا يُمكن توجيه اختيار القراءة ما لم نقف على الظروف الاجتماعية والنفسية والمشاهد التي أحاطت بالنص فجعلت القارئ يستبدل صوتاً بآخر أو كلمة بأخرى أو أسلوباً بآخر ، وما لم نستشفّ من جوّ النص وسياقه صورة أو شخصية أو مشهداً .

والنماذج التي عرض لها البحث تمثّل اختياراً قائماً على استحضار النص القرآني نصّاً موحّداً ، واستحضار جوّ الآية ومناسبتها وتوالي نظمها الذي يُملي على القارئ اختيار القراءة دون إخلال بنظم القرآن وحسن سياقه ، فضلاً عن الغاية التي يسعى إليها في اتصال معاني كلام الله في نسق واحد منتظم .

القراءات والسياق اللغويّ

لم تكن القراءات بمنأى عن السياق النظميّ للقرآن الكريم سواء في سياق النصّ بوصفه سورة واحدة

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤٤ د - المجلد ٤٤ - كانون الأول لسنة ٢٠١٩

أو في سياق السورة الواحدة أو الآيات المتضامّة بعضها ببعض وتعلق ألفاظه بعضها ببعض ، وملاءمة اللاحق للسابق في التركيب والمعنى ، ولعلّ أكثر هذا النوع من القراءات ينحو نحو التوافق بوصفه قرينة لغوية على اتصال عناصر بناء نص الآية وتوافقها في السياق .

ومن نماذج هذا النوع :

قرأ الحسن البصري وعمرو الأسواريّ : [[قالَ عذابي أُصيبُ به مَن أساء / الأعراف ١٥٦]] بدل (مَن أشاءُ) وقد ذهب ابن جني إلى أنّ هذه القراءة أكثر إفصاحاً بالعدل والمجازاة من قراءة الجمهور(٦)

ولم يُبين ابن جني علّة هذه القراءة ، ولعلّها أكثر ملاءمة لجوّ الآيات التي اشتملت عليها هذه السورة المباركة ، فهي في مقاطع منها تقص علينا معصية أبوينا (آدم وحوّاء) عليهما السلام ، لِما نهاهما عنه الله سبحانه ، ومعصية الأقوام السالفة لأنبيائهم ورسلهم ، وغير ذلك مما تضمنته سورة الأعراف من هذه المعاصي وفي كلّ ذلك إساءة ، وقد قال تعالى قبل هذه الآية : [[ومن خفّت موازينُه فأولئك الذين خسروا أنفسَهم بما كانوا بآياتنا يظلمون / الأعراف ٩]] وقال جلّ وعلا : [[هل يُجزون إلّا ما كانوا يعملون / الأعراف ١٤٧]] وقال بعدها : [[فأرسلنا عليهم رِجزاً من السماء بما كانوا يفعلون / الآية ١٦٢]] ، لهذا كلّه كانت هذه القراءة أشدّ بياناً عن العدل وأكثر إفصاحاً عن المُجازاة ، ومن هنا جاءت لفظة (أساءَ) محملة بهذا المعنى وهذه الطاقة المستمدّة من جوّ تلك الآيات وسياق نص السورة عامة ، وقد صدق الله سبحانه ، حين قال : [[ومن أساءَ فعليها / فصلت ٤٦]] .

قرأ غير حفص عن عاصم (٧) (أي أبو عمرو وابن عامر ونافع وحمزة والكسائي وغيرهم) : [[فنوفّيهم أجورَهم / آل عمران ٥٧]] بدل : فيوفّيهم ، حملاً على ما تقدّم من قوله : (فأحكمُ ، فأعذّبُهم) في الآيتين (٥٥ و٥٦) ، ويرى الرازي أنّ ذلك أولى لأنّه نسق الكلام (٨) . والانتقال في المخاطبة من الغيبة إلى الحضور لا يبعد عن الأساليب الفصيحة في كلام العرب ، وهو طريقة مألوفة مطردة في الاستعمال ، وعليها جاءت هذه القراءة الشائعة وإن لم تكن موافقة في صيغتها لِما تقدّم (فأحكمُ) ، ولكنّها أقرب إلى المشاكلة في الإسناد لأنّ كلّاً منهما إخبار من الله عن نفسه سبحانه .

ومثل ذلك قراءة نافع المدنيّ : [[ويومَ نحشُرُ / السجدة ١٩]] بدل (ويُحشَر) لأنّ قبله (ونجّينا الذين آمنوا) ، وقوّاها أبو جعفر النحّاس بما ورد في سياق النص القرآني في قوله تعالى : [[وحشرْناهم / الكهف ٤٧]] ، ويرى مكي بن أبي طالب أنّ ذلك أحسن في مطابقة الكلام وبناء آخره على أوّله إذ هو عطف مُخبر على مُخبر هو هو (٩) .

قرأ نافع المدنيّ : [[لَمَا آتيناكم من كتابٍ وحكمةٍ / آل عمران ٨١]] بدل (لَمَا آتيتُكم) لِما في ذلك من الدلالة على التفخيم والتعظيم والهيبة في قلب المتلقّي السامع ، ولأنّ هذا المعنى تليق به هذه القراءة ، قال الرازي : ((حجّة نافع قوله تعالى : (وآتينا داود زبوراً / النساء ١٦٣) و(آتيناهُ الحكمَ صبيّاً / مريم ١٦) يُشير بذلك إلى موافقة هذه القراءة لسياق النظم القرآني ، فضلاً عن أنّ هذا التغيير

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤٤ د - المجلد ٤٤ - كانون الأول لسنة ٢٠١٩

في الخطاب من صيغة المفرد إلى صيغة الجمع أحد أبواب الفصاحة كما يرى نافع نفسه (١٠) وما ذهب إليه الرازي لا يبعد عن الصواب في مراعاة السياق اللغوي للنص القرآني في اختيار هذه القراءة ، ومراعاة السياق اللغوي للسورة نفسها كذلك ، فقبل الآية قوله تعالى : (كيف إذا جمعناهم / الآية ٢٥) وقوله تعالى : (وذلك من أنباء الغيبِ نوحيهِ إليكَ / الآية ٤٤) وقوله تعالى : (ذلكَ نتلُوهُ / الآية ٥٨) ، ليمضي الكلام على نسق واحد وهو الإخبار من الله سبحانه عن نفسه بأسلوب التفخيم .

قرأ ابن عباس والحسن البصري وسعيد بن جبير وعكرمة ويعقوب وابن سيرين (١١) : [[سرابيلُهم من قِطرٍ آنٍ / إبراهيم ٥٠]] بفصل (آنٍ) عن (قطر) نعتاً لها ، والقِطر هو الصّفر أو النحاس المُذاب ، و(آنٍ) الغاية في الحرّ ، وملاحظة سياق النص القرآني يُشير إلى ورود كلّ من الكلمتين على حدة ، قال تعالى :[[قال آتوني أُفرغْ عليه قِطراً / الكهف ٩٦]] غير موصوف ، وقال تعالى : [يطوفونَ بينها وبين حميمٍ آنٍ / الرحمن ٤٤] حيث (آنٍ) نعت لحميم ، وهذا يدلّ على أنّ هذه القراءة موافقة لسياق النظم القرآني في تركيبه ومواضع ألفاظه ، واستعمال كلمة (قِطر) في النص القرآني بمعنى النحاس المُذاب له نظير في الشعر العربيّ القديم ، قال أميّة بن أبي الصلت (١٢) :

وسُليمانُ إذ يسيلُ له القِطْـــــــــــــــــرُ على مُلكهِ ثلاثَ ليـــــــالِ

قرأ أبو عمرو وحده (من السبعة) : [[ذلك الذي يبْشُرُ الله عبادَه / الشورى ٢٣]] بضم الشين المخففة ، بدل (يُبشّرُ) وهي قراءة الجمهور ، وذهب أبو جعفر النحّاس إلى أنّهما لغتان فصيحتان(١٣) غير أنّ سياق الآية التي قبلها يُملي على القارئ هذا الاختيار لأنّه يستحضر صورة الذين (آمنوا وعملوا الصالحات وهم في روضات الجنّات لهم ما يشاؤون عند ربّهم) ومن تمام الصورة أن يتحدّث عن النضارة التي تشرق في وجوههم مصداقاً للآية الكريمة [تعرفُ في وجوهِهم نُضرةَ النعيم / المطفّفين ٢١)(١٤) وهذا ملحظ يدلّ على أنّ قراءة أبي عمرو تُشير إلى معنى النضارة التي هي صورة السرور الحاصل من الثواب ، وكلّ ذلك مستفاد من استحضار صورة سياق الآيات والفهم السديد لما توحي به الكلمة من دلالة خاصة ، وفي هذا المجال قرأ أبو عمرو أيضاً : [[إنّ الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتَحُ لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنّةَ / الأعراف ٤٠]] بدل قراءة الجمهور (تُفتّحُ) بتشديد التاء ، وقرأها بالتخفيف كذلك : الأعمش وحمزة والكسائي ولكن بصيغة التذكير (يُفتحُ)(١٥) ويرى أبو جعفر النحاس أنّ قراءة الجمهور أولى لدلالتها على الكثرة ، وليس في ذلك حُجة . وقراءة التخفيف بصيغة التأنيث أكثر مناسبة للحال المتصوّرة وأحسن مطابقة للجزاء المتوقع في ضوء السياق الكلّي للآية الكريمة من غير إخلال بالنظم والصياغة ، يقول الدكتور عبدالصبور شاهين : ((سياق هذه الآية يلمح بأنّ الفرصة أمام المكذبين المستكبرين جدّ ضئيلة للنجاة ... بل هي معدومة ، فليس لهم أن يتوقعوا حين تقوم قيامتهم أنّهم سوف يُستقبلون استقبال الطائع الخاشع ، فلن يُفتح لهم باب من أبواب الرحمة))(١٦) وعلى هذا يمكن حمل قراءة التخفيف بصيغة التذكير .

قرأ ابن ذكوان : [[فإذا حبالُهُم وعِصيّهم تُخيّلُ إليهِ / طه ٦٦]] بدل قراءة الجمهور : (يُخيّلُ) بالتذكير ، وقراءة التأنيث أقرب مناسبة للسياق اللفظي للآية لتأنيث الحبال والعِصيّ ، ويرى مكي بن أبي طالب أنّها قراءة قويّة (١٧) ويقوّي ذلك موافقة ما بعده في التأنيث : (مِن سحرهم أنّها تسعى) فجرى الكلام على نسق واحد .

قرأ ابن كثير والحسن البصري وأبو عمرو وأبو رجاء العطارديّ والكسائيّ(١٨) : [[فكَّ رقبةً أو أطعمَ / البلد ١٣]] بصيغة الماضي للفعلين (فكّ وأطعمَ) بدل الاسمية فيهما (فكٌّ) و (إطعامٌ) ، وفسّر مكي بن أبي طالب هذه القراءة بقوله : ((لمّا وقع لفظ الماضي في قوله : (ولا اقتحمَ) واحتاج إلى تفسير الاقتحام ما هو فسّره بفعل ماضٍ مثله ، وهذا أقوى وأحسن))(١٩) ويقوي ذلك عنده أنّ ما بعده (ثُمّ كان من الذين آمنوا) ، وهو اختيار الفرّاء (٢٠) ، من هنا كان اختيار هذه القراءة لإحداث التوافق في صيغ الأفعال في سياق الآية لتجري على نظام واحد .

قرأ السبعة سوى عاصم وابن عامر : [[تُسقى بماءٍ واحدٍ / الرعد ٤]] بصيغة التأنيث (٢١) بدل (يُسقى) ، وقراءة الـــتأنيث مناسبة لما قبلها (وفي الأرضِ قطعٌ مُتجاوراتٌ وجنّاتٌ من أعنابٍ) وكذلك هي مُناسبة للـــتأنيث الذي يليها (ونُفضّلُ بعضَها على بعضٍ) ، وقد اختار هذه القراءة أبو عبيد القاسم بن سلّام وأبو حاتم السجستاني ، واستحسنها أبو عمرو(٢٢) ، لِما وراء هذه القراءة من مناسبة وثيقة لنظم الآية ، وتوافق في المُسند إليه (المؤنّث) .

قرأ حمزة وعاصم وابن وثّاب والأعمش والكسائي(٢٣) : [[أإذا كُنّا عظاماً ناخرةً / النازعات ١١]] بدل (نخِرة) ، قال أبو جعفر النحاس : ((وهي أشبه برؤوس الآيات التي قبلها وبعدها))(٢٤) وهو يقصد أنّ آيات سورة النازعات تنتهي أواخرها بمثل هذه الصيغة وهي صيغة (فاعل) الدالّة على اسم الفاعل أو الصفة المشبهة به ، و(ناخرة) هنا صفة مشبهة بمعنى الجوفاء أو الفارغة ، والميل إلى هذه القراءة واختيارها لغرض التوافق في الصيغة اللغوية التي تردّد ذكرها في طائفة من الكلمات في سياق نظم السورة ، من نحو : الرادفة وخاشعة وواجفة والساهرة والحافرة و خاسرة .

القراءات والسياق غير اللغويّ

سبقت الإشارة إلى أنّ المراد بالسياق غير اللغوي هو السياق الخارجيّ ، وقلنا إنّه يشتمل على ما عُرف عند علماء القرآن والتفسير بـــــــ(سبب النزول) ، وما يُحيط بإنتاج الكلام من ملابسات وظروف ، ويشتمل السياق غير اللغوي كذلك على الأخبار التي تصور لنا الأحداث والشخصيات التي اكتنفها النص القرآني ، ينضاف إلى ذلك سياق الموقف المتصوّر من سياق النصّ نفسه ، ولا شكّ في أنّ ثمّة اختيارات في القراءات قد سلكت هذا النحو ، وهو أمرٌ دالّ على حضور السياق غير اللغويّ بأبعاده المختلفة في أذهان أصحاب هذا النوع من القراءات .

ومن نماذج هذا النوع :

قرأ الإمام عليّ وابن عباس وعبد الرحمن السُّلمي وشقيق بن سلمة ومجاهد وعكرمة وابن وثّاب وطلحة بن مُصرّف وغيرهم : [[وقالت هِئتُ لكَ / يوسف ٢٣]] بالهمزة وكسر الهاء ، أي : تهيّأتُ لك

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤٤ د - المجلد ٤٤ - كانون الأول لسنة ٢٠١٩

(٢٥) بدل القراءة المشهورة : هيْتَ لك .

قال الداني : هذا هو الصواب (٢٦) ، وهذه القراءة جيدة عند البصريين (٢٧) ، ولعلّ صواب هذه القراءة كما يوحي سياق الآية يكمن في سياق الموقف المتصوّر لامرأة العزيز ، فمن المعلوم أنّ النبيّ يوسف (عليه السلام) وقد بلغ رشده وقع في نفسها فراودته عن نفسه حتّى بلغ بها الأمر أنْ غلّقت الأبواب ، وكانت قد أخذت في زينتها وتهيّأت لفتاها (يوسف عليه السلام) ، وهذه الزينة وذلك التهيؤ كما يُلمح من المشهد المُتصوّر يُغني عن قولها : هيتَ لك ، لذا قال عليه السلام : (معاذَ الله) . وهو ليس جواباً ، إنّما هو يعوذ بالله مِمّا عاينه من حال تلك المرأة التي شغفها حبّاً وقد أصرّت على المعصية .

ويؤيّد هذه القراءة العالية ما رُويَ عن الإمام عليّ (عليه السلام) أنّها سترت صنماً بثوبها لشدّة حيائها وهي على تلك الصورة (٢٨) .

قرأ الحسن البصريّ وأبو واقد والحسن بن عمران : [[فطاوعَتْ لهُ نفسُهُ قتلَ أخيهِ / المائدة ٣٠]] بدل : فطوّعتْ ، وهي القراءة المشهورة ، وقد استبعد أبو جعفر النحّاس هذه القراءة لعدم اطّرادها وفصاحتها لأنّ الفصيح عنده : طاوعتْه نفسه (٢٩) ، والمظنون أنّ الجو النفسي للآيات يوحي بأنّ (قابيل) قد حدّثته نفسه بقتل أخيه (قال : لأقتُلنّكَ) وقد عزم على ذلك وكأنّ كلّ مراده في قتل أخيه ، فلم يكن من نفسه إلّا أن تنقاد لرغبته ، ولهذا تأوّل ابن جنّي هذه القراءة بأنّ مراده أنّ قتل أخيه جذبه إلى نفسه ودعاه إلى ذلك فأجابته (٣٠) ، ويظهر أنّ (طاوَعَتْ له) تركيب لغوي على حِدة فيه من قوّة الدلالة ما لا يخفى وهو قريب من حيث الصورة من قوله تعالى : [وإذا قُرئ القرآنُ فاستمعوا لهُ / الأعراف ٢٠٤] ولم يقل : فاستمعوه ، إذ ليس المقصود السماع لذاته بل السماع المقرون بالفهم والتدبّر والتفكّر ، وكذلك : (طاوعتْ له) صيغة تركيبية لها دلالتها الخاصة على الفعل الخفيّ الداخلي المشترك بين النفس الأمّارة بالسوء وصاحبها كما ألمح ابن جنّي .

قرأ الحسن البصري وقتادة وعيسى بن عمر وداود بن أبي هند : [[إذا قيلَ لكم تفاسَحوا في المجالسِ فافَسحوا / المجادلة ١١]] على المُفاعلة بدل (تفسّحوا) ، ويرى الفرّاء أنّ الصيغتين متقاربتان مثل : لا تُصاعر ولا تُصعّر (٣١) ، غير أنّ ابن جني يرى أنّ هذه القراءة أليق بالغرض لأنّ التفاسح يدلّ على مفاعلة لما فوق الواحد (٣٢) والسياق الخارجيّ (سبب النزول) للآية يعضد هذه القراءة ، فقد روي عن ابن عباس أنّ الآية نزلت في ثابت بن قيس* وكان في أذُنيه وقر ، وقد دخل المسجد يريد القرب من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان القوم قد أخذوا مجالسهم فوسّعوا له (٣٣) .

وقرأ السبعة سوى عاصم (المجلس) بصيغة المفرد بدل (المجالس) لأنّ المعروف من المجالس زمان نزول الآية هو مجلس الرسول الذي يعظم التنافس عليه كما أشار الواحديّ (٣٤) .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو (٣٥) : [[إذ يغشاكمُ النّعاسُ أمنةً منه ويُنزِل عليكم من السماء ماءً / الأنفال ١١]] بتخفيف الشين والزاي ، بدل يُغشّيكم و يُنزّلُ ، وقراءة التخفيف هذه لها سياقها الخارجي

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤٤ - المجلد ٤٤ - كانون الأول لسنة ٢٠١٩

الواقعي في يوم بدر ، وعن الإمام علي ـــــــــ عليه السلام ـــــــــــ ((ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق ، ولقد رأيتُنا وما فينا إلّا نائمٌ إلّا رسولُ الله ـــــــــ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـــــــــ تحت شجرة يُصلي ويبكي حتّى أصبح))(٣٦) ، وقد أبان الدكتور عبد الصبور شاهين عن ملامح السياق الخارجي لهذه القراءة قائلاً : ((فالمقصود أنّهم ناموا خفيفاً لا ثقل فيه ولا عمق ، فهو النوم الظاهر الذي يمرّ على المرء فلا يكاد يغشاه حتى ينجلي عنه ، وليس أنسب في التعبير عن هذه الإلمامة من الفعل الثلاثي ، ومن هنا كانت قراءة أبي عمرو متساوقة مع واقع الحال ومتسقة مع الفعل التالي : ويُنزِل عليكم))(٣٧) .

قرأ الإمام علي (عليه السلام) ومحمد الباقر وجعفر الصادق (عليهما السلام) ومجاهد وقتادة وأبو رجاء والشّعبيّ وسعيد بن جبير وثابت البناني والزهريّ والأعرج وابن محيصن وعوف بن أبي جميلة ومحمد اليماني ويزيد بن قطيب(٣٨) : [[قد شعَفَها حُبّاً / يوسف ٣٠]] بالعين المهملة بدل (شغفها) ، والمرجعية اللغوية لهذه القراءة تُشير إلى أنّ الشعف : الاشتعال والاتقاد ، وشعفتُ البعير بالقطِران إذا أشعلتُه به ، والشَّعف أيضاً : داء يُصيب الناقة فيتمعّط شعَر عينيها ، وهو للإناث خاصة (٣٩) ، ومعنى القراءة عند أبي زيد الأنصاري ـــــــــــ كما حكى الصّغاني ـــــــــــ أنّ حُبّها ليوسف عليه السلام أمرضها وأذابها ، وهي أقوى من جهة المعنى عند ابن جني لأنّ حُبّه قد بلغ قلبها فكاد يُحرقه لحدّته ، وما يسوّغ هذه القراءة استعمال هذه الكلمة (الشعف) بهذا المعنى في الشعر العربيّ القديم ، قال امرؤ القيس (٤٠) :

أيقتُلُني ! وقــــــــد شعفـــــــــتُ فؤادَها كما شعَفَ المهنوءةَ الرجلُ الطالي

ومع ذلك فإنّ سياق الآيات التي قبلها واستحضار الحال والمشهد المُتخيّل يُسوّغ اختيار هذه القراءة ويعضدها ، فقد راودتْه امرأة العزيز في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب بعد أن تهيّأت له بما أخذت من زينتها وأظهرت من مفاتنها ، حتى بلغ الأمر أن استبقا إلى الباب فقدّت هي قميصه من دُبُر .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم : [[يُمدِدْكم ربُّكم بخمسةِ آلافٍ من الملائكةِ مُسوِّمين/ آل عمران ١٢٥]] بكسر الواو المشدّدة بدل (مُسوَّمين) ، ومعنى القراءة : مُعلِمين من العلامة ، أي علموا أنفسهم بعلامات خاصّة ، ويرى الرازي أنّ أكثر الأخبار أنّهم سوّموا خيولهم بعلامات جعلوها عليها (٤١) ، وتوجيه الكسر وحمله على مقتضى الحال وسياقه أولى ، وفي الأخبار أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال يوم بدر : (سوّموا فإنّ الملائكة قد سوَّمت)(٤٢) .

قرأ ابن عباس وابن عمر ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وأبان بن تغلب وابن هرمز وأبو روق وأبو رجاء العطاردي ونصر عن عاصم والأعمش (٤٣) : [[وأعتدتْ لهُنّ مُتْكاً / يوسف ٣٨]] بتخفيف التاء غير مهموز ، بدل القراء المشهورة : (مُتّكَأً) والمُتك بهذه القراءة فاكهة من جنس الليمون وهو الأترُج بلغة القبط (٤٤) وواقع الحال والمشهد المُتصوّر يعضده سياق النظم يُملي على القارئ اختيار هذه القراءة العالية ، وذلك أنّ يوسف عليه السلام خرج على النسوة فجأة فدُهِشن لحسن وجهه وتحيّرن فجعلن يُقطّعن أيديهن وهُنّ يحسبن أنّهن يُقطّعن الأترج .

وقال أبو جعفر النحاس : ((حضور النساء ومعهنّ السكاكين إنما هو لطعام يُقطّع بالسكاكين))(٤٥) ، ولهذا كانت هذه القراءة أليق بالمقام وأوفى بالغرض والغاية التي في نفس امرأة العزيز لكي تُبرّئ ساحتها أمام النسوة ، وقد رأت ما صنع حُسن يوسف عليه السلام بهنّ وهنّ مدهوشات .

قرأ نافع ويعقوب الحضرمي وأبو جعفر المدني والحسن البصري (٤٦) : [[فأنْفُخُ فيه فيكون طائراً بإذن الله / آل عمران ٤٩]] للدلالة على الواحد بدل (فيكون طيراً) المحتملة للواحد والجمع لأنّها اسم جنس ، والظاهر أنّ نافعاً المدنيّ والآخرين استحضر السياق الخارجيّ أو قصّة نزول الآية الكريمة التي تُشير المرجعية الإخبارية لها إلى أنّ عيسى عليه السلام طولب بخلق خفّاش ، فأخذ طيناً وصوّره ثمّ نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض ، وعن وهب بن مُنبّه أنّ الخفّاش كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه (٤٧) .

فتلك قصة الطائر الذي خلقه عيسى عليه السلام بإذن الله ، وعليها كان اختيار قراءة نافع والآخرين .

قرأ ابن عباس ونافع وابن كثير وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو جعفر المدني والأعمش وابن محيصن (٤٨) : [[ولَمُلِّئتَ منهم رُعباً / الكهف ١٨]] بتشديد اللام الثانية على التكثير ، بدل (ولَمُلِئتَ) وهي قراءة الجمهور ، وذهب مكي بن أبي طالب إلى أنّ التشديد لغة والتخفيف أكثر استعمالاً (٤٩) ، وهو ما لا نميل إليه ، فمتابعة السياق القصصي وتصوّر واقع الحال لأهل الكهف بمعونة المرجية الإخبارية كلّ ذلك يُملي على القارئ اختيار هذه القراءة العالية المناسبة للجوّ المحيط بأهل الكهف ، فضلاً عن تعبيرها عن الأثر النفسيّ الذي يتركه مشهدهم المتصوّر فيمن اطّلع عليهم وقد ولّى فراراً ((لِما حفّهم الله تعالى من الرعب واكتنفهم من الهيبة في مكان موحش يُنفّر الناس عنهم))(٥٠) .

الخـــــــــاتمة

تناول البحث بالوصف والتفسير طائفة من القراءات القرآنية التي سلك في اختيارها أصحابها مسلكاً لا يخضع إلى متطلبات صوتية مُعيّنة ، ولا ينتمي كذلك إلى مستويات لهجية مُحدّدة ، لقد كانت تلك القراءات اختيارات لعناصر لغوية استبدالية تنتمي إلى مقتضيات السياق العام بنوعيه اللغوي وغير اللغوي وهو أمر على قدر كبير من الأهمية ، لأنّه دالّ على وعي أولئك القرّاء بدور السياق في تكوين النصوص ولا سيّما السياق غير اللغوي الذي يفضي إلى اختيار الوحدة اللغوية المشاكلة لواقع الحال والمناسبة للموقف .

وقد تبيّن لنا دور السياق اللغوي في اختيار الوحدات اللغوية التي روعيَ فيها السياق اللغوي لنص السورة ، أو الآية الواحدة في إطار الآيات المتتابعة التي تكتنفها ، كما اتضح دوره في الاختيار على أساس المشاكلة في الإسناد ، والتوافق في الصيغ اللغوية الفعلية والوصفية على حدّ سواء .

وقراءات هذا المستوى (السياق اللغويّ) بشكل خاص ذات أثر في المتلقي حين تنقله من صيغة إلى أخرى ومن أسلوب إلى آخر لا يُخلّ بسياق النص ولا المقصود ، ولقد قال الزمخشري : ((الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى آخر كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد))(٥١) ، وبمثل هذا احتجّ نافع المدنيّ في إحدى قراءاته الاستبدالية ، فقال : ((إنّ

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤٤ - المجلد ٤٤ - كانون الأول السنة ٢٠١٩

أحد أبواب الفصاحة تغيير العبارة من الواحد إلى الجمع ومن الجمع إلى الواحد))(٥٢) .

هوامش البحث

(١) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، د عبده الراجحي ص ١

(٢) العباب الزاخر ، الصغاني ، (حرف الفاء) ص ٩٠

(٣) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، ص ٣٥٣

(٤) مباحث في علوم القرآن ، د صبحي الصالح ، ص ١٣

(٥) ينظر : اللغة والمعنى والسياق ، جون لاينز ، ص ٢١٥

(٦) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات ، ابن جني ١ / ٢٦١

(٧) و(٨) تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) ٨ / ٨٠

(٩) ينظر : إعراب القرآن ، أبو جعفر النحاس ٣ / ٤٣ ، والكشف عن وجوه القراءات لمكي بن أبي طالب ٢ / ١٤٨

(١٠) ينظر : تفسير الرازي ٣ / ١٣٠

(١١) ينظر : المحتسب ١ / ٣٦٦ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩ / ٢٥٣

(١٢) أمية بن أبي الصلت حياته وشعره ص ٢٤٩

(١٣) إعراب القرآن ٣ / ٥٨

(١٤) ينظر : أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي ، د عبد الصبور شاهين ص ٤٢٣

(١٥) ينظر : إعراب القرآن ١ / ٦١١

(١٦) أثر القراءات في الأصوات والنحو العربيّ ص ٤٣١

(١٧) الكشف عن وجوه القراءات ٢ / ١٠١

(١٨) إعراب القرآن ٣ / ٧٠٧ والكشف عن وجوه القراءات ٢ / ٣٧٦ ـــــــــــ ٣٧٧

(١٩) الكشف عن وجوه القراءات ٢ / ٣٧٧

(٢٠) ينظر : معاني القرآن للفرّاء ٣ / ٢٦٥

(٢١) ينظر : تفسير الطبري (جامع البيان) ١٣ / ٩٦

(٢٢) ينظر : تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ٩ / ١٨٦

(٢٣) إعراب القرآن ٥ / ١٤٢ وتفسير الرازي ٣١ / ٣٦

(٢٤) إعراب القرآن موضع سابق ، وينظر : تفسير الرازي ٣١ / ٣٧

(٢٥) العباب الزاخر (هيأ) ١ / ١٤٣ وينظر : تفسير القرطبي ٩ / ١٠٨

(٢٦) اتحاف فضلاء البشر للدمياطي ٢ / ١٤٣

(٢٧) ينظر : تفسير القرطبي ٩ / ١٠٨

(٢٨) المصدر السابق ٩ / ١١٢

(٢٩) ينظر : إعراب القرآن ١ / ٤٩٣

(٣٠) ينظر : المحتسب ١ / ٢٠٩

(٣١) ينظر : معاني القرآن ٣ / ١٤١

(٣٢) ينظر : المحتسب ٢ / ٣١٥

* ثابت بن قيس بن شماس صحابي من الأنصار

(٣٣) ينظر : مفاتيح الغيب ٢٩ / ٢٦٩

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤٤ د - المجلد ٤٤ - كانون الأول لسنة ٢٠١٩

(٣٤) ينظر : المصدر نفسه ٢٩ / ٢٧٠

(٣٥) ينظر : تفسير القرطبي ٩ / ٤٥٨

(٣٦) المصدر السابق ٩ / ٤٥٩

(٣٧) أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي ص ٤٣١

(٣٨) ينظر : المحتسب ١ / ٣٣٩ والعباب الزاخر (حرف الفاء) ص ٣٢٣

(٣٩) العباب الزاخر (حرف الفاء) ص ٣٢٤ ـــــــــ ٣٢٥

(٤٠) ديوانه ص ٣٣ وهي الرواية الثانية للبيت كما أشار المحقق في هامشه

(٤١) تفسير الرازي ٨ / ٢٣٢

(٤٢) كتاب السنن لأبي عثمان الخراساني ٢ / ٣٩٠

(٤٣) ينظر : المحتسب ١ /٣٣٩ ومعجم القراءات للدكتور عبد اللطيف الخطيب ٤ / ٢٤١

(٤٤) تفسير القرطبي ١١ / ٣٢٩

(٤٥) إعراب القرآن ٢ / ٣٢٦

(٤٦) المصدر السابق ١ / ٣٧٩ وينظر : معجم القراءات ١ / ٥٠٠

(٤٧) ينظر : تفسير الرازي ٨ / ٦٢

(٤٨) ينظر : الكشف عن وجوه القراءات ٢ /٥٧ ومعجم القراءات ٥ / ١٧٣

(٤٩) ينظر : الكشف الموضع نفسه

(٥٠) تفسير القرطبي ١٠ / ٢٤٣

(٥١) الكشاف للزمخشري ١ / ٨

(٥٢) تفسير الرازي ٨ / ١٣٠

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- **اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، البنّا الدمياطي ، القاهرة ١٣١٧ ه**
- **أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي ، د عبد الصبور شاهين ، القاهرة ١٩٨٧**
- **إعراب القرآن ، أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ه) ، تحقيق د زهير غازي زاهد ، بغداد ١٩٧٧**
- **أميّة بن أبي الصلت حياته وشعره ، دراسة وتحقيق د بهجت الحديثي ، أبو ظبي ٢٠٠٩ ـ**
- **تفسير الطبري (جامع البيان) أبو جعفر الطبري (٣١٠ه) ، بيروت ١٤٠٥ ه**
- **تفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب) ، فخر الدين الرازي (٦٠٤ه) ، دار الفكر ، بيروت ١٩٨١**
- **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، أبو عبد الله القرطبي (٦٧١ه) ، بيروت ١٩٨٨**
- **دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ه) ، تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٩٨٤**
- **ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٥ دار المعارف ، مصر (د . ت)**
- **العباب الزاخر ، الصّغاني (٦٥٠ه) ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، بغداد ١٩٨١**
- **كتاب السنن ، أبو عثمان الخراساني المروزي (٢٩٨ه) ، الهند ١٩٨٢**
- **الكشاف ، الزمخشري (٥٣٨ه) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٤٧**
- **الكشف عن وجوه القراءات السبع ، مكي بن أبي طالب (٤٣٧ه) تحقيق د محيي الدين رمضان ، بيروت ١٩٨١**
- **اللغة والمعنى والسياق ، جون لاينز ، ترجمة د عباس صادق الوهاب ، بغداد ١٩٧٨**
- **اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، د عبده الراجحي ، مصر ١٩٦٨**

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤٤ د – المجلد ٤٤ – كانون الأول لسنة ٢٠١٩

- مباحث في علوم القرآن ، د صبحي الصالح ، بيروت ١٩٧٢
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات ، ابن جني (٣٩٢ه) ، تحقيق علي النجدي وآخرين ، القاهرة ١٣٨٦ه
- معاني القرآن ، أبو زكريا الفراء (٢٠٧ه) ، تحقيق النجار ونجاتي ، القاهرة ١٩٥٥

العدد ٤٤ د - المجلد ٤٤ - كانون الأول لسنة ٢٠١٩

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية